محاولات فتح القسطنطينية في عهد الخليفة الأموي سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه (49 – 60 هـ/ 666 – 680م)

د.حامد إبراهيم الاحيدب قادم
كلية التربية /جامعة الدلنج
د.السنوسي موسى آدم صالح
كلية التربية / جامعة السلام

Abstract
This study dealt with the attempts to conquer the city of Constantinople, the capital of the Eastern Roman state, which defined the Byzantine state during the era of Caliph Muawiyah bin AbiSufyan (may God be pleased with him). This study aimed at determining the strength of the Muslims and their readiness to besiege Constantinople, especially in the field of the armada, and that is the interest and follow-up of the Caliph himself for the Islamic armies heading to Constantinople, as well as standing on the stages of the Muslim siege of the city and the difficulties they faced, and then how to end the siege and its causes. The researcher followed the descriptive, analytical and inductive historical research method in presenting and analyzing the information collected from sources and references. The study concluded that the Muslims imposed their control over a number of islands near the city in order to tighten control over them, and that they imposed a long siege on the city that terrified its rulers and its residents, but many circumstances complemented and led to the failure of the siege, and that the end of this siege ended with a successful truce between the two parties. Led to stop the war, even for a temporary period.

مستخلص:

تناولت هذه الدراسة محاولات فتح مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية، والتي تُعرف بالدولة البيزنطية في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه). وهدفت هذه الدراسة إلى الوقوف على قوة المسلمين واستعداداتهم لحصار القسطنطينية خاصة في مجال الأسطول الحربي، وذلك واضح من اهتمام ومتابعة الخليفة للجيوش الإسلامية المتجهة إلى القسطنطينية بنفسه، وكذلك الوقوف على مراحل حصار المسلمين للمدينة وما واجهوه من صعاب، ومن ثم كيفية إنهاء الحصار وأسبابه. وقد اتبع الباحثان منهج البحث التاريخي الوصفي والتحليلي والإستقرائي في عرض وتحليل المعلومات التي جمعت من المصادر والمراجع.

وخلصت الدراسة إلى أن المسلمين فرضوا سيطرتهم على عدد من الجزر القريبة من المدينة، من إجل إحكام السيطرة عليها، وأنهم فرضوا حصاراً طويلاً على المدينة أرهب حكامها وسكانها، غير أن ظروف عديدة تكاملت وأدت إلى فشل الحصار، وأن نهاية هذا الحصار انتهى بعقد هدنة ناجحة بين الطرفين أدت إلى وقف الحرب ولو لفترة مؤقتة.

مقدمة:

تعتبر الدولة الأموية التي قامت في الفترة من (41 – 132هـ/ 662. 750م) والتي أسسها سيدنا معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه)، بعد نهاية دولة الخلفاء الراشدين، وهي من أقوى الدول الإسلامية المتعاقبة، حيث ظهرت فيها ملامح القوة باهتمام خلفائها بالجيش وتطويره، وتحديث خططه، وإنشاء أماكن لصناعة السفن الحربية لتقوية الأسطول البحري، مما جعلها تمتلك جيشاً قوياً، يمتاز بتنوع الفرق العسكرية والأسلحة، وكذلك يتميز بالقدرة على تنوع الخطط الحربية، مما جعل من الدولة الأموية دولة جهاد وفتوحات. وكانت حركة الجهاد الإسلامي ضد الدولة الرومانية الشرقية قد بدأت منذ عهد الرسول (صل الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين من بعده، حيث فتح المسلمون في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه 13هـ/634م) بلاد الشام ومصر التي كانت تتبع للرومان، وعندما جاءت الدولة الأموية رفعت راية الجهاد والفتح عاليةً، فكانت محاولة فتح مدينة القسطنطينية دلالة على قوة الدولة وطموح خلفائها.

أ/ أهداف الموضوع :

إلقاء الضوء على فترة تاريخية مهمة من تاريخنا الإسلامي ، ووضع لبنة في بناء صرح "إحياء التراث الإسلامي" .

ب/ أهمية الموضوع :

تكمن أهمية هذا الموضوع في كونه محاولة جادة لرسم صورة واضحة عن مدينة القسطنطينية ومناعتها وإصرار وعزيمة الخليفة الأموي والصحابي الجليل سيدنا معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه).

ت/ سبب إختيار الموضوع :

تقديم صورة واضحة عن مدينة القسطنطينية المدينة الروحية الكبيرة عاصمة الدولة الرومانية الشرقية، والتي تعرف بالدولة البيزنطية، والمعقل الإستراتيجي لانطلاق الحملات الصليبية ضد العالم الإسلامي .

ث/ نطاق الدراسة :

تتناول الدراسة محاولات فتح مدينة القسطنطينية في عهد الخليفة الأموي سيدنا معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه).

أما زمانها فينحصر في الفترة الممتدة من (49 – 60 هـ/ 666 – 680م)

ج / منهج البحث :

وقد اتبع الباحثان منهج البحث التاريخي الوصفي والتحليلي والإستقرائ .

استعدادات المسلمين لحصار القسطنطينية:

كان الخليفة معاوية (رضي الله عنه) يرى أن الخطر الأكبر على الدولة الإسلامية هي الدولة البيزنطية، فإنها ورغم سيطرة المسلمين على أهم أقاليمها (الشام ومصر) إلا أنها ما زالت تحتفظ بقوتها ومناوأتها للمسلمين، فهي الخطر الرئيس والعدو الأكبر الماثل أمام المسلمين. أما سيدنا معاوية (رضي الله عنه) فقد كان مدركاً لذلك الخطر وكيفية مواجهته، فطول إقامته بالشام أكسبته خبرة واسعة بأحوال البيزنطيين وسياستهم وأهدافهم، لذك رسم سياسة واضحة وثابتة نحوهم، سار عليها هو والخلفاء الأمويون من بعده، وقد كان من أهدافه الرئيسة الإستيلاء على القسطنطينية.[1].

وبعد أن استقر الأمر لسيدنا معاوية (رضي الله عنه) باشر بنفسه تطوير الأسطول البحري، ليكون قادراً على دك معاقل القسطنطينية عاصمة الرومان، ومبعث العدوان والخطر الدائم ضد المسلمين، فكانت الأساطيل الحربية في زمنه كثيرة، لاهتمامه بها، وقد ساعده على ذلك كثرة الغابات في جبال لبنان، حتى بلغ أسطوله 1700 (ألف وسبعمائة) سفينة كاملة العدة والعدد، وصار يسيرها في البحر فترجع غانمة، وافتتح بها عدة جهات مثل جزيرة قبرص، وبعض جزائر اليونان، وجزيرة رودس، فاشتدت الأساطيل الإسلامية على الروم، يعترضونهم في البحر ويأخذون سفنهم، وكان سيدنا معاوية يكثر لهم العطاء، فخافهم العدو.[2].

أما في البر فقد رتب الخليفة معاوية حملات الشواتي، جمع شاتية (الجيش الذي يغزو شتاءً) والصوائف، جمع صائفة (الجيش الذي يغزو صيفاً)، فكانت الغزوات متتابعة، والثغور محفوظة من الخطر البيزنطي. وقد وضع سيدنا معاوية (رضي الله عنه) أمامه هدفاً واضحاً هو محاولة الضغط على الدولة البيزنطية، من خلال الضغط على عاصمتها القسطنطينية، تمهيداً للإستيلاء عليها، ولعله كان يرمي إلى إسقاط الدولة البيزنطية نفسها، وذلك بالاستيلاء على عاصمتها القسطنطينية، فهو يعلم أن هذه العاصمة العتيدة هي مركز أعصاب الدولة ومستقر الأموال والرجال، وفيها العقول المفكرة، فإذا سقطت في يده فهذا يؤدي إلى شلل تام في الدولة كلها، وأمامه تجربة المسلمين مع الفرس، فبعد سقوط عاصمتهم المدائن في أيدي المسلمين أصابهم الإرتباك، ولحقهم الفشل، ولم تقم لهم قائمة، وزالت دولتهم. فإذا استطاع إسقاط القسطنطينية فإن ذلك سيكون نذيراً بسقوط الدولة البيزنطية، لذلك واصل ضغطه ومحاولاته لتحقيق هدفه.[3]

أما القسطنطينية فإنها أعظم مدن الروم وعاصمة دولتهم، فهي مدينة منيعة، تقع على بحر مرمرة، وكانت تحيط بها من كل الجهات حتى من ناحية البحر عدة أسوار منيعة، أُقيم عليها أبراج عديدة، وقد بناها

الأباطرة الرومان منذ عهد قسطنطين الأكبر، وكان من الممكن غلق خليج بحر مرمرة، ومنع السفن المعادية من دخوله، إذا أُلقيت السلسلة بين لسان الأرض المعروف بالقرن الذهبي، وبين الساحل الآسيوي.[4]

حرص الخليفة معاوية (رضي الله عنه) على أن يكون زمام المبادرة دائماً في يده، لأن القسطنطينية هي تمد جزر شرق البحر المتوسط بالقوات والعتاد، وتشجع أهلها على شن الغارات على ساحل الشام ومصر، ولتحقيق هذا الهدف عمل سيدنا معاوية (رضي الله عنه) على الآتي:

أولاً: الإهتمام بدور صناعة السفن في الشام ومصر، واختيار أمهر الصناع للعمل فيها، والإغداق عليهم بالأجور والهبات، حتى يبذلوا قصارى جهدهم في العمل [5].

وقد أدرك بحسه العسكري وفكره العبقري أن معارك المسلمين مع الروم أساساً تعتمد على الأسطول البحري، وزاد هذا الإحساس عمقاً في نفس سيدنا معاوية تكتل الروم وإعدادهم أكثر من خمسمائة سفينة في معركة ذات الصواري لقهر الأسطول الإسلامي، ورغم هزيمة الروم في هذه المعركة إلا أنهم لم يكفوا عن الإعداد وتجميع قواهم لمقاتلة المسلمين ومواجهة قواتهم في البحر، وقد توقع الرومان أن المعركة القادمة ستكون على أسوار القسطنطينية، فراحوا يستعدوا لذلك.[6]

وقد أدى التعاون بين الشام ومصر في صناعة السفن بالوصول إلى نتائج ممتازة، ففي الشام كانت تتوفر أشجار الصنوبر القوي ، والبلوط، والعرعر، التي تصلح لصناعة السفن، وفي مصر توجد الأخشاب التي تصلح لصناعة الصواري وضلوع جوانب السفن، وخشب الجميز والدوم واللبخ التي تصلح لصناعة المجاديف،[7] .

وكذلك استغل سيدنا معاوية (رضي الله عنه) معدن الحديد الذي كان متوافراً في الشام ومصر واليمن، لصناعة المسامير والمراسي والخطاطيف والفؤوس، كما كانت تتوافر في مصر مادة القطران التي تستعمل في قلفطة السفن، ونبات الدقس الذي كانت تصنع منه الحبال، وباختصار فقد أدى التعاون الشامي المصري إلى ازدهار البحرية الإسلامية، التي ازدادت أهميتها بعد أن أمر سيدنا معاوية (رضي الله عنه) عامله على مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري ببناء دار لصناعة السفن في جزيرة الروضة سنة (54هـ/ 673م)، وذلك على إثر غارة شنها البيزنطيون على مصر.[8] .

وعليه يمكننا القول أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه)كان يسير في بناء القوة البحرية الإسلامية على وفق خطة معدة مسبقاً ومرسومة نراها تثمر لاحقاً في بناء قوة بحرية إسلامية متميزة أسهمت في كثير من الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي والعصور التي تلته، وبلغت أقصى مراحل قوتها في عهد العثمانيين.

ثانياً: تقوية الثغور البحرية في مصر والشام، فقد آثر أن يحصن المدن الساحلية وتزويدها بالقوات المجاهدة، بما يجعلها قواعد تنقل منها الجنود بحراً إلى أي مكان يشاء، ووضع لهذه المدن نظاماً عُرف بالرباط، ويقصد به الأماكن التي يتجمع فيها الجند والركبان استعداداً للقيام بحملة على أرض العدو، واعتنى بهذا النظام حتى أصبح جزءاً شديد الإرتباط بالجهاد، إذ اجتذب الرباط إليه كل الأتقياء المتحمسين للجهاد، العاملين على إعزاز الإسلام ونصرته. فأعدت الربط لتكون حصوناً يتجمع فيها الجند، للدفاع عن المناطق المعرضة لإغارات الأساطيل البيزنطية، ولتكون ملجئاً يحتمي بها الأهالي في المناطق الساحلية وأن يأخذوا حذرهم إذا ما لاح خطر السفن البيزنطية في المياه الإقليمية، فكان الحصن في الرباط يضم ثكنات للجند، ومخازن للأسلحة والمؤن، وبرج للمراقبة، ثم ازدادت أهميته حتى أصبح قاعدة للهجوم وشن الغارات، كما نقل جماعة من أهالي بعلبك وحمص وانطاكية إلى صور وعكا وغيرهما من المدن الساحلية سنة (42هـ/663م)، كذلك أصلح تحصينات جميع مدن الساحل.[9]

ثالثاً: الإستيلاء على الجزر الواقعة شرقي البحر الأبيض المتوسط، وقد بدأ بالإستيلاء على جزر قبرص، وكذلك جزيرة رودس التي أمر ببناء حصن بها، وبعث إليها جماعة من المسلمين يتولون الدفاع عنها، وجعلها رباطاً يدافعون منه عن الشام، وأراد الخليفة معاوية (رضي الله عنه) أن يتوج حملاته البحرية بغلق بحر إيجة، وسد منافذه الرئيسة في وجه السفن البيزنطية، ومنعها من الوصول إلى بلاد المسلمين، وعمل على تحقيق ذلك بالإستيلاء على جزيرة كريت، إذ تسيطر هذه الجزيرة تماماً على بحر إيجة، كما عمل على منع الأساطيل البيزنطية من التسلل عبر الفتحات البحرية المتاخمة لها لمهاجمة الشام، لكنه لم يستطع السيطرة ، واكتفى بالإغارة عليها والبطش بسفن البيزنطيين. وهكذا استطاع سيدنا معاوية (رضي الله عنه) أن يوجه أنظار المسلمين ناحية البحر الأبيض المتوسط، فاستولى على ما استطاعت أساطيله فتحه، وطرق أبواب غيرها، وأوجد للملسمين قوة بحرية نافست البيزنطيين في سيادتهم القديمة على البحر الأبيض المتوسط، ثم أخذ يعبئها لأهم عمل في تاريخها وهو ضرب القسطنطينية والإستيلاء عليها، ولكنه تريث قليلاً في ذلك حتى يمكن لنفسه من التفوق البحري على البيزنطيين.[10]

رابعاً: ولكي تؤتي هذه الإستعدادت البحرية ثمارها وتحقق أهدافها يجب أن يصاحبها تحصين أطراف الشام الشمالية، التي تشكل مناطق الحدود بين المسلمين والبيزنطيين، ضد غارات البيزنطيين من ناحية، ولتكون سنداً للقوات الزاحفة ناحية القسطنطينية من ناحية أخرى، ذلك لأن المسلمين في فتوحاتهم في عهد الخلفاء الراشدين سابقاً وصلوا إلى أطراف الشام الشمالية، ولكن سلسلة جبال طوروس وقفت دون وصولهم إلى آسيا الصغرى البيزنطية، وكان البيزنطيون في تقهقرهم أمام المسلمين قد قاموا بتخريب المناطق

الواقعة شمال مناطق حلب وأنطاكية لئلا يستفيد منها المسلمون، كما خربوا معظم الحصون بين الإسكندرية وطوروس[11].

فرأى الخليفة معاوية ضرورة تحصين هذه المناطق وتعميرها، فاهتم أولاً بمدينة أنطاكية، وأغرى الناس بالإقامة فيها، وقوى الرباط المخصص للدفاع عنهم، وأخذ تدريجياً يوالي تعمير المدن الواقعة بين الإسكندرية وطوسوس، حتى أصبحت حدود الشام تتاخم مباشرة جبال طوروس – الحد الفاصل بين الشام وآسيا الصغرى – ولإحكام سيطرته على المناطق الواقعة في الحدود الإسلامية البيزنطية، استولى على سيمساط وملطية، كما جدد حدوداً أخرى مثل مرعش والحدث، ثم استولى على حصن زبطرة البيزنطي الهام وأعد تحصينه، كما دأب على الغزو المستمر، حتى تكون الحركة مستمرة في مناطق الحدود، وأصبح هذا النشاط يعرف بغزوات الشواتي والصوائف، فكانت هذه الغزوات تخرج إلى بلاد الأعداء وتخرب حصونهم، وتغنم وتعود، مما يشكل ضغطاً على البيزنطيين وينهك قواهم، وقد برز في ذلك عدداً من القادة الذين أتقنوا فن الحرب وأبلوا بلاءً حسناً في الجهاد ضد البيزنطيين لإعلاء كلمة الله عزّ وجلّ، مثل عبدالله بن كرز البجلي، وجنادة بن أمية الأزدي، ومالك بن عبدالله الخثعمي، الذي أُطلق عليه مالك الصوائف لعلو كعبه في ميدان الحروب في آسيا الصغرى.[12]

الحصار الأول للقسطنطينية (54–49 هـ/ 666–673م):

معلوم أن العلاقات الإسلامية البيزنطية قد شهدت إبتداءً من منتصف القرن الأول الهجري السادس الميلادي سلسلة من الأحداث الهامة، جعلت الصراع العسكري بينهما سجالاً ومتأرجحاً بين النصر والهزيمة، والسلم والحرب، وفقاً لمقتضيات الظروف السياسية والإقتصادية والإجتماعية في كل منهما.[13]

ويرجع الفضل للخلافة الأموية عامةً والخليفة معاوية (رضي الله عنه) خاصةً في وضع سياسة عسكرية واضحة الأهداف والمعالم ضد الدولة البيزنطية، وتنظيم الحملات لمهاجمة القسطنطينية.[14]

ولم تمضِ أعوام قلائل حتى أتم الخليفة معاوية (رضي الله عنه) استعداداته لحصار وفتح القسطنطينية، وهو الذي خبر بنفسه مفاوز آسيا الصغرى ومسالكها، وتحرك فيها بقواته أكثر من مرة، ووقف على أحوال الدولة البيزنطية، وما وصلت إليه من الضعف والإنحلال. حيث واجه الإمبراطور البيزنطي قسطانز الثاني حركات تمرد داخلية، قادها سليوس وميزيريوس، فساعد ذلك الخليفة معاوية (رضي الله عنه) في حشد أعظم قواته في البر ودعمها بأسطول ضخم من الشام ومصر، وبعث طليعة قواته بقيادة فضالة بن عبيد الأنصاري، فاخترق الأناضول سنة(48هـ/668م)، وافتتح حصونها حتى خلقدونية.[15]

وحاصرها توطئة لاقتحامها في محاولة لاختراق المدينة من تلك الناحية، ولكن انتشار مرض الجدري وفتكه بكثير من جند المسلمين، علاوة على حلول الشتاء القارص، جعل ظروف الجيش المحاصر صعبة

للغاية، فما كان من فضالة الليثي قائد الجيش إلا رفع الحصار وانتظار المدد من الخليفة. فظل الخليفة يمده بالجند والمؤن باستمرار، غير أن المدد الذي وصل بقيادة سفيان بن عوف الثوري هو الذي بدأ بتنفيذ الحصار على القسطنطينية.[16]

ومن ناحية أخرى كان للروم نظام دفاع عن حدودهم، خصوصاً وأن بلادهم منذ عهد جستنيان (527 – 565م) كانت مقسمة إلى أقسام حربية تقابل المناطق الحربية في الشام، فبثوا في هذه الأقسام خاصة المجاورة منها لأراضي المسلمين الجيوش العديدة التي تُقدّر بالآلاف، وكانت تقيم عادة في حصون منيعة على الجبال أو على الساحل. كما كانت العاصمة القسطنطينية تحديداً منيعة بأسوارها وأبراجها التي بناها الأباطرة سابقاً.[17]

وبالرجوع إلى الجيش الإسلامي ونظراً لجسامة المهمة وأهمية الحملة، أردف الخليفة معاوية بن أبي سفيان القوات الإسلامية بقوة أخرى يقودها إبنه يزيد بن معاوية، مما أنعش آمال المسلمين على مواصلة الحصار، وكان بهذا الجيش الأخير مجموعة من الصحابة وأبناء الصحابة، منهم أبي أيوب الأنصاري، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عمرو ابن العاص، وعبد الله بن العباس، (رضي الله عنهم).[18]

وسار الأسطول الحربي بقيادة أمير البحر بسر بن أرطأة، واخترق مضيق الدردنيل دون مقاومة، ونقل الجيش إلى الشاطئ الأوربي بالقرب من قصر هبدون على بعد أميال قليلة من القسطنطينية، وأصبح القائد العام لهذه الجيوش هو يزيد بن معاوية، الذي انضم إلى الجيوش المرابطة هناك، وعسكروا جميعاً خلف أسوار القسطنطينية ضاربين عليها الحصار، وكان ذلك سنة (50هـ/670م)، وكان عليها الإمبراطور قسطنطين الرابع، وقد وقف على أنباء هذه المحاولة والتجهيز لها، واستعد لردها بكل ما أوتي من وسيلة للدفاع. وهكذا بدأ العرب أعظم معاركهم البحرية والبرية بمحاصرة القسطنطينية، فطوقوها من البر والبحر، بصفوف كثيفة من السفن والجند، ولبثوا عدة أيام من الفجر إلى المساء يهاجمون واجهتها الشرقية حتى القرن الذهبي دون أن يظفروا بالدنو من أسوارها وأبراجها المنيعة، والواقع أن المسلمين أخطأوا تقدير منعة القسطنطينية، ومنعة وسائل الدفاع الرومانية، وما أثاره الخطر الداهم في نفوس الرومانيين من الشجاعة والإستبسال في الدفاع عن حاضرتهم وآخر معاقلهم، والذود عن دينهم ومدينتهم، فهالهم جلد العدو وصبره.[19]

واستمر الحصار حوالي ستة أشهر (من الربيع إلى الصيف من سنة) وكان يتخلل هذا الحصار إشتباكات بين قوات الدولتين، وأبلى يزيد بن معاوية في هذا الحصار بلاءً حسناً، وأظهر من ضروب الشجاعة والنخوة والإقدام ما حمل المؤرخين على أن يلقبوه ب(فتى العرب). وكادت القوات الإسلامية أن تحرز إنتصاراً لولا أنهم واجهوا صعوبات جمة، مثل البرد القارص، والمطرالغزير، مما أدى إلى نقص الطعام والأغذية، وبُعد طريق الإمدادات، وتفشي الأمراض بينهم، كما كان لمناعة أسوار القسطنطينية أثرها في تراجع المسلمين، وإجبارهم

مرة أخرى على العودة إلى الشام، وذلك إضافة إلى النار اليونانية (التي كانت أنجع وسائل الدفاع عندهم) والتي فتحها البيزنطيون على جيش المسلمين، فقد أعاقت قدرتهم على فتح المدينة، وأحرقت كثيراً من سفن المسلمين وعتادهم[20].

ولما لحق الإعياء بصفوف المسلمين من تلك الهجمات الضارية، تحولوا إلى ضفاف بحر مرمرة، وأخيراً اضطر المسلمون إلى فك الحصار والعودة إلى الشام، وتوفي في هذه الغزوة الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري (رضي الله عنه)، ودفن عند أسوار القسطنطينية، ولا زال قبره بها يُزار للآن، وعليه مسجد يتوج فيه خلفاء آل عثمان[21].

والحقيقة أن هذه الحملة بالرغم من فشلها من الناحية العسكرية، إلا انها تعتبر ناجحة من الناحية السياسية، حيث جعلت الأباطرة البيزنطيين يخططون لاتخاذ وسائل أكثر نجاعة للدفاع عن عاصمتهم ضد هجمات المسلمين، فأحدثوا تغييراً في النظم العسكرية والإدارية في الإمبراطورية بشكل عام، وفي إقليم آسيا الصغرى بوجه خاص، والذي اعتبروه خط الدفاع الأول عن العاصمة القسطنطينية.[22]

الحصار الثاني للقسطنطينية (54 – 60هـ/674– 680م):

لم يثنِ فشل الحملة الأولى نحو القسطنطينية عزم الخليفة معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) عن المضي قدماً في محاولاته لفتحها، وأدرك في الوقت نفسه أهمية السيطرة على الجزر القريبة منها كعامل مساعد، ولتحقيق ذلك اهتم سيدنا معاوية (رضي الله عنه) بترتيب الروابط والحفظة على طول الساحل، وإعداد المراكب العديدة التي كانت تُصنع من خشب غابات لبنان، وأن خطة فتح القسطنطينية كانت تقتضي تعاون الأسطول مع الجيش.[23]

فقد أرسل الخليفة معاوية (رضي الله عنه) ثلاثمائة سفينة ثقيلة عليها أسلحة الحصار من المنجنيقات، تحمل الواحدة ألف رجل، وخمسمائة مركب خفيف، وتحمل الواحدة من هذه المراكب الخفيفة مائة رجل، وقد أخضع هذا الأسطول في طريقه سكان السواحل، وعدد من الجزر مثل جزيرة رودس سنة (52هـ/672م) [24].

كما سيطر الأسطول الإسلامي على جزيرة خيوس، وجزيرة قليقيا، وبذلك أحكم الجيش الإسلامي الطوق البحري على القسطنطينية، ووصل الجيش الإسلامي إلى القسطنطينية وبدأ الحصار الثاني لها، والذي يعرف ب(حرب السبع سنين) حيث استمر محاصراً لها سبع سنوات في الفترة من (54 – 60هـ/674- 680م)[25].

واستدعى الأمر تعزيز القوة البحرية في مياهها، فانضم إليها أسطول إسلامي آخر بقيادة جنادة بن أبي أمية، بعد أن فتح جزيرة أرواد القريبة منها، حيث اتخذها المسلمون قاعدة لعملياتهم الحربية، فكانت

الأساطيل تنقل الجنود من هذه الجزيرة إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية، إلى حين يكمل الأسطول الحصار، واستمر الحصار البري والبحري للمدينة من شهر أبريل إلى سبتمبر، تتخلله مناوشات بين أساطيل المسلمين وأساطيل البيزنطيين من الصباح إلى المساء، في حين تراشقت القوات البرية الإسلامية المرابطة على أسوار المدينة مع القوات البيزنطية بالقذائف والسهام.(26)

استمر هذا الوضع طيلة سبع سنوات حتى سنة (60هـ/680م)، واقتصرت فيها العمليات العسكرية على فترتي الربيع والصيف لصعوبة القتال في الشتاء. فأرهقت البيزنطيين، وأذاقتهم ألوان الضنك والخوف، وأنزلت بهم خسائر فادحة، ورغم ذلك صمدت المدينة أمام الحصار، فلم يستطع المسلمون إحراز إنتصاراً حاسماً، وذلك بتركيز جهودهم ناحية البحر، أما الحصار البري فكان مزعزعاً، حيث ظلت الطرق البرية وطريق البحر الأسود مفتوحة أمام البيزنطيين، مما جعل منها متنفساً وطريقاً للإمدادت والمؤن، وهذا خطأ إستراتيجي ترتبت عليه عدة نتائج بالغة الأهمية، إذ توقف زحف المسلمين إلى أوربا من جهة الشرق، بالإضافة إلى أنه عزز موقف الإمبراطورية البيزنطية.(27)

وتضافرت عدة عوامل جعلت المسلمين يفكون الحصار عن القسطنطينية، لعل أبرزها:

1/ استعمال البيزنطيين في هذه الحروب ناراً سموها النار البحرية، أو النار الإغريقية، وهي عبارة عن مركب كيميائي مكون من النفط والكبريت، وكان هذا المركب يُشعل بالنار ويقذف فيشعل النار في المراكب، والعجيب أنه يزداد اشتعالاً إذا لامس الماء، ومخترع هذا المركب مهندس سوري الأصل إسمه كالينكوس، كان في خدمة المسلمين، ثم هرب إلى القسطنطينية ووضع خبرته في خدمة البيزنطيين.(28)

وكان هذا السلاح الجديد من أهم العوامل التي ساعدت البيزنطيين على الصمود والإستمرار في الدفاع عن العاصمة، وعرف المسلمون سر هذا السلاح في القرن الحادي عشر الميلادي، الخامس الهجري، وأدخلوا عليه تعديلاً جعله أكثر فتكاً، واستخدموه في حروبهم ضد الصليبيين بالشام، وقد أدخل فيهم الخوف والرعب، ومنذ ذلك الحين عرفت ب(النار الإسلامية).(29)

2/ السلسلة الحديدية الضخمة الحاجزة بين القرن الذهبي لميناء القسطنطينية وبين الشاطئ الآسيوي، حيث كان يتم إقفالها في حالة الحرب، أو التهديد بالحصار.

3/ الموقع الجغرافي الفريد الذي وُصف بأنه استقر على شبه الجزيرة البارز من أوربا، والذي يكاد يلاقي الشاطئ الآسيوي، وفي وسط الطريق بين الحدود الشمالية والشرقية بقعة يحميها مد مرمرة العنيف من الهجمات البحرية.

4/ الأسوار الداخلية والخارجية الضخمة والمزودة بعدد كبير من أبراج المراقبة، التي كان لها دوراً كبيراً في كشف التحركات المعادية، وإبطال عنصر المفاجأة فيها.

5/ ضعف التجربة الأموية في حرب الحصار للمدن المتادخلة مع مياه البحر، مثل القسطنطينية، حيث تطلب ذلك أسلحة متطورة وأساليب جديدة في القتال، لم تكن في متناول القوات الأموية حتى ذلك الحين.

6/ دبلوماسية الدولة البيزنطية والدولة الإسلامية: والظروف الداخلية في كل من الدولتين أسهمت في إنهاء الحصار، فدخلوا في مفاوضات إنتهت بعقد صلح بينهما، عاد بمقتضاه الجيش والأسطول الإسلامي إلى الشام. وفيما يتعلق بالدولة فقد أدرك الخليفة معاوية (رضي الله عنه) أن مدة الحصار قد طالت دون أن يتحقق الهدف، ولما كانت سنَه قد كبرت وأحس بدنو أجله، رأى من المصلحة أن يعود هذا الجيش الكبير المرابط حول العاصمة دمشق تحسباً لأي مشاكل قد تواجه إبنه وخليفته يزيد بعد موته، فيكون وجود هذا الجيش ضرورياً لضبط الأمور داخلياً. أما الدولة البيزنطية فإنها أيضاً كانت تواقة إلى إنهاء هذا الحصار عن عاصمتها، فقد أرهقها وأنهك قواها، ولذلك يُقال أنها أرسلت إلى دمشق رجلاً من أشهر رجالها الدبلوماسيين، وأكثرهم ذكاءً وفطنةً، يُقال له يوحنا، وحضر هذا الرجل جلسات كثيرة ضمت خيرة أبناء البيت الأموي، وأبدى فيها من الإجلال للدولة الإسلامية ما أكسبه تقدير الخليفة معاوية (رضي الله عنه) واحترامه، ونجحت مفاوضاته في عقد الصلح بين الطرفين، وبعد إبرام المعاهدة أخذت القوات الإسلامية المرابطة براً وبحراً أمام القسطنطينية طريق العودة إلى الشام، وتركت عاصمة البيزنطيين تئن من جراحها المثخنة.[30]

أما الجيش الإسلامي فقد اخترق الأناضول جنوباً ناحية الشام، بعد أن مُزقت صفوفه بالحصار والمطاردة، وأغرقت العواصف كثيراً من سفن الأسطول حين ارتداده، وفقد المسلمون خلال تلك المعارك المشهودة حوالي ثلاثون ألف مجاهد. وكانت حوادث هذا الحصار المشهود، وما لقي المسلمون فيه من الفشل، وما أصاب قواتهم الزاخرة من التمزق، أحد أهم العوامل التي أحيت الحرب الرومانية في الشرق والغرب، وأسبلت سحابة مؤقتة على مجد العرب، وهو ما دفع الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) إلى التفاهم مع الإمبراطور الروماني، وعقد الصلح الذي مرّ سابقاً بين الطرفين مدة أربعين عاماً.[31]

الخاتمة:

وبهذا الصلح توقفت الحرب بين المسلمين والبيزنطيين، على الأقل في عهد الخليفة معاوية ابن أبي سفيان (رضي الله عنه)، وقد أثبتت هذه الحرب أن الدولة الإسلامية قد بلغت من القوة ما يجعلها تقارع أي دولة في العالم في ذلك الوقت، كما وضح تطور المسلمين في صناعة الأسطول البحري الذي أثبت كفاءته وقوته، وأضحى من أهم عناصر القوة الحربية الإسلامية، وقد استفاد الطرفان من الصلح فتبادلا الأسرى،

وتبادلا الخبرات في العلوم والعمارة، وغيرها من مناحي الحياة، غير أن الحرب بين الطرفين وقعت لاحقاً في الحقبة الأموية التي تلت خلافة سيدنا معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه).

النتائج:

1- أن المسلمين فرضوا سيطرتهم على عدد من الجزر القريبة من المدينة، من إجل إحكام السيطرة عليها، وأنهم فرضوا حصاراً طويلاً على المدينة أرهب حكامها وسكانها .

2- كما أن هنالك ظروف عديدة تكاملت وأدت إلى فشل الحصار، وأن نهاية هذا الحصار انتهى بعقد هدنة ناجحة بين الطرفين أدت إلى وقف الحرب ولو لفترة مؤقتة

المصادر والمراجع:

1/ علي محمد الصلابي، الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ج1، دار المعرفة، بيروت، 2008م، ص 344.

2/ محمد الخضري بك، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، ج2، مطبعة الإستقامة، الاقهرة، 1354 هـ،115.

3/ الصلابي، مرجع سابق، ج1، ص 345.

4/ صلاح طهبوب، موسوعة التاريخ الإسلامي (العصر الأموي)، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن – عُمان، 2009م، ص19.

5/ عبدالشافي محمد عبداللطيف، العالم الإسلامي في العصر الأموي، مطبعة دار السلام، القاهرة، 2008م، ص245.

6/ الصلابي، مرجع سابق، ج1، ص346.

7/ السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، القاهرة، ص312.

8/ عبدالشافي محمد عبداللطيف، مرجع سابق، ص246.

9/ إبراهيم أحمد العدوي، الأمويون والبيزنطيون، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1963م، ص68.

10/ العدوي، مرجع سابق، ص82.

11/ البلاذري، أحمد بن يحيى بن جاب، فتوح البلدان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ طبع ، ص194.

12/ عبدالشافي محمد عبداللطيف، مرجع سابق، ص248.

13/ وديع فتحي عبدالله، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، 1990م، ص70.

14/ محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الأموية، دار النفائس، بيروت، 2010م، ص30.

15/ محمد عبدالله عنان، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، حسين عنان للنشر، 1997م، ص36.

16/ إبن الأثير، عز الدين أبي الحسن على بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني (ت630هـ): الكامل في التاريخ ، ج 3، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1997م ، ص227.

17/ صلاح طهبوب، مرجع سابق، ص19.

18/ الطبري، أبي جعفرمحمد بن جرير (ت 310هـ) تاريخ الأمم والملوك ، ج6 ، دار صادر ، بيروت ، 2003م ، ص148.

19/ محمد عبدالله عنان، مرجع سابق، ص37.

20/ محمد سيد الوكيل، الأمويون بين الشرق والغرب، ج1, دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، 1995م، ص59.

21/ محمد الخضري بك، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، ج2، مطبعة الإستقامة، القاهرة، 1354هـ، ص115.

22/ محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص33.

23/ صلاح طهبوب، مرجع سابق، ص20.

24/ البلاذري، مصدر سابق، ص330.

25/ الطبري، مصدر سابق، ج6، ص221.

26/ السيد عبدالعزيز سالم، وأحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر وبلاد الشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ص32.

27/ محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص34.

28/ العدوي، مرجع سابق، ص176.

29/ علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ص353.

30/ العدوي، مرجع سابق، ص175.

31/ إبن الأثير، مصدر سابق، ج3، ص186.